أن تصبح مترجمًا

رحلة من التكوين إلى الممارسة والرؤية



تأليف نادر الخمليشي

تقديم الدكتور الطيب بوتبقالت

المحتويات

إهداء.....9

تقديم.....10

ملاحظة إلى القارئ.....17

تمهيد.....18

الباب الأول: التاريخ والحضارة.....30

1. تاريخ الترجمة: ما الذي تغيَّر وما الذي بقي؟.....30

2. الترجمة في الحضارة العربية الإسلامية: حين صار النقل مشروعًا لبناء المعرفة.....39

3. الترجمة في المغرب: من الوساطة التاريخية إلى المهنة الحديثة.....47

4. الربع الأخير من القرن العشرين: حين بدأت المهنة تتغيَّر من الداخل.....51

الباب الثاني: كيف يُصنع المترجم؟.....54

5. من مدرسة الملك فهد إلى الميدان: كيف بدأت الرحلة.....54

6. ثلاثة أركان للمترجم: القارئ والمنهج والممارسة.....56

7. المترجم قارئٌ قبل أنْ يكون مترجمًا.....58

8. الترجمة إلى اللغة الأم: قاعدة أمْ أفضلية؟.....59

9. المترجم والمُراجع: شراكة أمْ صراع على النصِّ؟.....61

10. المصطلح والمعرفة المتخصصة: لماذا لا يكفي القاموس؟.....62

11. الذكاء الاصطناعي شريكٌ في التفكير لا بديل عنه.....64

12. حين ينتقل عنق الزجاجة: من الإنتاج إلى المراجعة والحكم.....65

الباب الثالث: الترجمة الشفهية — صناعة الحضور.....68

13. المترجم الشفهي بين الموهبة والصنعة.....68

14. كيف يتدرَّب المترجم الشفهي؟.....69

15. الترجمة التتبُّعية: فنُّ الإنصات وبناء الذاكرة.....71

16. الترجمة الفورية: العمل على حافة الزمن.....72

17. هل الترجمة الشفهية موهبة أمْ مهارة تُكتسب؟.....74

18. معايير الجودة والتكوين المهني في الترجمة الشفهية.....75

الباب الرابع: الميدان الذي لا تُعلِّمه الكتب.....77

19. اليوم الأول في الميدان.....77

20. حين يصبح المترجم جزءًا من الحدث.....78

21. المواقف التي لا تنساها المهنة.....79

22. من سنواتِ البداياتِ إلى الاستقرار المهني.....80

23. المترجم أمام التغيير: ماذا يخسر وماذا يربح؟.....81

الباب الخامس: الأخطاء والأخلاق.....83

24. أخطاء المترجم التي لا تظهر في القواميس.....83

25. أخلاقيات المترجم: الحياد، السرية، المسؤولية وحدود الدور.....84

26. المترجم بين الإنسان والوسيط: العبء النفسي وحدود التأثر.....86

27. حين يصبح الخطأ مشكلة نظام لا مشكلة فرد فقط.....87

الباب السادس: مجالاتٌ خاصة.....89

28. الترجمة القانونية والرسمية: حين تصبح الكلمة أثرًا.....89
29. الترجمة الدبلوماسية: حين يُوزن الكلام قبل أنْ يُقال.....90
30. ترجمة الخطاب الديني: بين قداسة المعنى ومسؤولية الوسيط.....91
31. عربية القرآن ومسؤولية نقل المعاني.....92
32. الترجمة الإعلامية والصحفية: حين يسبق الخبر المترجم.....94
33. ترجمة لغة الإشارة: حين يصبح الجسد لغة كاملة.....95
34. الترجمة في القضاء والطبِّ والخدماتِ العامة: حين يصبح الفهم حقًا لا رفاهية.....96
الباب السابع: المكتب وإدارة المهنة.....98
35. المكتب المثالي للترجمة الرسمية: من الألف إلى الياء.....98
36. سيرُ العمل المهني في مكتب الترجمة: من استلام الوثيقة إلى التسليم والأرشفة.....100
37. نظام الجودة في مكتب الترجمة: من اكتشاف الخطأ إلى منعِه.....103
38. إدارة الزبون في مكتب الترجمة: من أول اتصال إلى بناء الثقة والعودة.....105
39. إدارة الوقت والضغط في مكتب الترجمة.....107
40. من المترجم الفرد إلى المكتب المنظم: متى نفوِّض وكيف نبني فريقًا؟.....108
41. التسعير والربحية في مكتب الترجمة: كيف نحدد قيمة العمل من غير أنْ نسقط في حرب الأسعار؟.....110
42. حين تصبح المراجعة مسؤولية لا «خدمة مُخفَّضة».....112
43. السُّمعة المهنية والتسويق الهادئ للمترجم.....113
44. من الشهادة إلى أول زبون: كيف يبدأ المترجم الشابُّ مسارَه من غير أنْ يحرق المراحل؟.....115

45. التواصل الإستراتيجي للمترجم: كيف يفتح الأبوابَ من غير أنْ يفقد وقاره المهني؟.....116
46. الجمعياتُ والتنظيم المهني: لماذا لا تكفي كفاءة المترجم الفردية لحماية المهنة؟.....118
47. تنظيم المهنة في المغرب: نحو رؤية أوسع للتعدُّد اللغوي.....119
48. نماذج دولية لتنظيم مهنة الترجمة: ماذا يمكن أنْ يتعلَّم المغرب؟.....121
الباب الثامن: التكنولوجيا التي غيَّرت مكتب المترجم.....123
49. من القلم والقاموس إلى أدواتِ الترجمة بمساعدة الحاسوب.....123
50. ظهور الترجمة الآلية: حين بدأت الأنظمة تقترح الحلَّ.....125
51. الذكاء الاصطناعي يدخل مكتب المترجم: من أداة للترجمة إلى شريك في التفكير.....127
52. المترجم والنظام الذكي: شراكة أمْ إحلال؟.....128
53. أخطار الذكاء الاصطناعي في الترجمة: الهلوسة، السرية، التحيز، وتآكُل المهارة.....130
54. الترجمة الشفهية في عصر الذكاء الاصطناعي: الصوتُ الفوري، الدبلجة، والاستنساخ الصوتي
.....132
55. حين لا تعود الأداة هي الميزة: من استعمال الذكاء الاصطناعي إلى هندسة سير العمل.134
56. صعود النماذج العربية المتخصصة: من «دعم العربية» إلى بناء نماذج حولها.....136
الباب التاسع: مستقبل المترجم.....138
57. هل ستختفي مهنة المترجم؟ بين الخوف من النهاية والتحول إلى مهنة جديدة.....138
58. المهن الجديدة حول الترجمة: من المترجم إلى المشرف اللغوي ومهندس سير العمل.....140
59. من المترجم إلى مُراجِع لغويٍّ للذكاء الاصطناعي.....142
60. القيمة تنتقل من إنتاج الجملة إلى التصديق على صلاحيتها.....144
61. المترجم في (2035) وما بعده: كيف يمكن أنْ يبدو يوم العمل؟.....145

62. ماذا ينبغي أنْ يتعلَّم طالب الترجمة اليوم؟.....147
63. من الترجمة إلى صناعة التواصل.....149
64. حين تصبح اللغة بنية تحتية داخل المؤسسة.....151
الباب العاشر: من التجربة إلى الرؤية.....153
65. عشرون سنة، ماذا علَّمتْني؟.....153
66. أشياء كنتُ أتمنى أنْ أعرفها في بداية الطريق.....158
67. إلى المترجم الذي يبدأ اليوم.....163
68. الترجمة التي أؤمن بها.....168
69. الخاتمة: الرحلة لا تنتهي.....173
الملحق التطبيقي المختصر: دفتر الميدان.....178
عن المؤلف.....182

تقديم

بسمِ الله الرَّحمن الرَّحيم

الحمدُ لله الذي علَّم الإنسانَ ما لم يعلم، وجعل اختلافَ الألسُن والألوان آيةً من آياتِ حكمته، وسبيلًا إلى التعارف والتواصل بين بني البشر، والصلاةُ والسَّلامُ على سيدنا محمد، المبعوث رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد،

فإنَّ من أجمل اللحظاتِ التي يمكن أنْ يعيشها الأستاذ والمُربّي أنْ يرى ثمرةَ سنواتِ التعليم والتوجيه وقد بدأت تنضج، وأنْ يشهد أبناءه من الطلبة الذين رافقهم في بداياتهم وهم يشقّون طريقهم بثقةٍ واقتدار، حتى يصبحوا أسماءً فاعلة ومؤثرة في ميادين العِلم والعمل.

ولعلَّ هذه المشاعر هي التي تنتابني وأنا أضع هذه الكلماتِ بين دفَّتَي كتاب «أنْ تصبح مترجمًا: رحلة من التكوين إلى الممارسة والرؤية»، الذي أبدعه الأستاذ والمترجم المحترف نادر الخمليشي؛ وهو عملٌ لا أُقدِّمه إلى القارئ بصفتي قارئًا أو أستاذًا فحسب، وإنما أُقدِّمه أيضًا بصفتي واحدًا ممَّن عرفوا المؤلِّف في مرحلة مبكرة من مساره، وتابعوا عن قُربٍ بعض محطات تكوينه ونموه العلمي والمهني.

لقد عرفتُ "نادر الخمليشي" منذ سنواتِ تكوينه الأولى بمدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة، وكنتُ أتابع فيه، منذ ذلك الحين، ملامحَ شخصية علمية ومهنية أخذتْ تتشكَّل بهدوء وثبات. كان طالبًا جادًا، شغوفًا بالمعرفة، دؤوبًا في التحصيل، حريصًا

على أنْ يفهم قبل أنْ يحفظ، وأنْ يبحث قبل أنْ يحكم. وكان إلى جانب ذلك كله يتمتَّع بخصال إنسانية جميلة، من تواضُع وحُسن معشر ودماثة خُلق، وهي صفاتٌ لا تقلُّ أهميةً عن المعرفة والكفاءة في بناء شخصية المترجم الحقيقي.

ولم يكن غريبًا، والحالُ هذه، أنْ يتطوَّر مسارُه تدريجيًا من طالبٍ متفوق إلى مترجمٍ مُتمرِّس، ومن متلقٍّ للمعرفة إلى مُمارس لها، ثم إلى صاحب تجربة ورؤية يسعى إلى تقاسُمها مع غيره. فقد شقَّ طريقَه في مجال الترجمة الشفوية والتحريرية، وخاض تفاصيل المهنة بما فيها من تحدياتٍ دقيقة ومواقف عملية لا يمكن للكتب وحدَها أنْ تنقل حقيقتها.

وهنا تكتسب أهمية هذا الكتاب.

فكتاب «أنْ تصبح مترجمًا: رحلة من التكوين إلى الممارسة والرؤية» ليس مجرد عرضٍ لمجموعة من المعارف النظرية المُتعلِّقة بالترجمة، ولا هو دليل تقنيٌّ محدود الغاية؛ بل هو، في جوهره، رحلة فكرية ومهنية وإنسانية، يحاول المؤلف من خلالها أنْ يجيب عن سؤال يبدو بسيطًا في صياغته، عميقًا في دلالته: ماذا يعني أنْ تصبح مترجمًا؟

فالترجمة ليست مجرد امتلاك لغتَين أو أكثر، وليست عملية استبدال كلماتٍ بأخرى. إنها تكوينٌ متواصل، وثقافة واسعة، وحسٌّ لغويٌّ، وقدرة على الفهم والتأويل، ودقة في الاختيار، ووعي بالسياق، ومسؤولية تجاه النصِّ وصاحبه والقارئ أو المتلقي. والمترجم، في نهاية المطاف، لا ينقل الكلمات وحدها، وإنما ينقل المعنى والسياق والمقصد، وفي كثير من الأحيان ينقل جزءًا من ثقافة إلى ثقافة ومن عالَم إلى عالَم.

ومن هذه الزاوية، يأخذ الكتابُ القارئَ في مسار مُتدرِّج يبدأ من التكوين، ولا يتوقَّف عند حدود الحصول على المعرفة الأكاديمية، بل ينتقل إلى فضاء الممارسة المهنية بما يطرحه من أسئلة وتحديات واختيارات. وهي ميزة أساسية في هذا العمل؛ لأنَّ المؤلف لا يتحدَّث عن الترجمة من برج نظريٍّ معزول، وإنما يتحدث عنها من داخل التجربة، ومن موقع الممارس الذي عرف تفاصيل المهنة واختبر صعوباتها واكتسب، عبر سنوات طويلة، ما يمكن أنْ نسميه "حكمة الممارسة".

ويمتدُّ هذا المسار ليشمل الخلفيات التاريخية والحضارية للترجمة، ومكانتها في الثقافة العربية الإسلامية والمغربية، كما يتوقف عند مقومات بناء المترجم، وشروط التكوين، ومتطلبات الممارسة، وما قد يواجهه المترجمُ في حياته المهنية من صعوباتٍ ومواقف واختبارات لا تُدرَّس بالضرورة في قاعاتِ الدرس، وإنما تُكتسب شيئًا فشيئًا من خلال الاحتكاك بالميدان.

وهنا تكمن إحدى نقاط القوة في هذا الكتاب: أنه يردم المسافة بين ما يتعلَّمه الطالب في المؤسسة الجامعية وما يكتشفه المترجم في الحياة المهنية.

فالمهنة، كما يوضح المؤلف ضمنيًا وصراحة، لها منطقها الخاصُّ، ولها أسئلتها اليومية، ولها أخلاقياتها ومسؤولياتها، كما أنَّ النجاح فيها لا يتوقف على المعرفة اللغوية وحدَها، بل يحتاج إلى الانضباط، والقدرة على اتخاذ القرار، وحُسن التدبير، والبحث المستمر، والمرونة، واحترام أخلاقيات المهنة.

ويزداد هذا البُعد أهميةً في الزمن الراهن، حيث لم تعُد مهنة الترجمة تعيش في عالَمها التقليدي، بل أصبحَت في قلب تحوُّل تكنولوجي عميق. فقد غيَّرَت الأدواتُ الرقمية، ثم الترجمة الآلية، وصولًا إلى الذكاء الاصطناعي التوليدي، كثيرًا من أساليب العمل

ومفاهيم الإنتاج اللغوي، وأعادت طرح السؤال حول مستقبل المترجم ودوره ومكانته.

وفي هذا السياق، يُقدِّم المؤلف قراءةً متوازنةً للتحولات التكنولوجية؛ فهو لا يتعامل مع الذكاء الاصطناعي باعتباره مجرد تهديد للمهنة، ولا باعتباره حلًا سحريًا لكلِّ مشكلاتها، وإنما يضعه ضمن منظومة أوسع يكون فيها المترجمُ هو صاحب الحكم والمسؤولية والقرار النهائي.

وهذه النقطة بالذات تستحق التنويه؛ لأنَّ مستقبل المهنة لن يتحدد، في تقديري، بمجرد قدرة الآلة على إنتاج نصوص سريعة، وإنما بقدرة المترجم على تطوير ما لا يمكن اختزاله بسهولة في الخوارزميات: الفهم العميق، والحسِّ النقدي، والوعي الثقافي، والقدرة على التقدير، والمسؤولية المهنية والأخلاقية.

ومن أجمل ما يميز هذا الكتاب، في نظري، تلك «اللغة الثالثة» التي تتشكل في ثناياه؛ لغة لا هي لغة الكتاب المدرسي الجامدة، ولا هي لغة التجربة المهنية المنفصلة عن التفكير، وإنما لغة تجمع بين وضوح المعرفة وعمق التجربة ودفء الخطاب. وهي لغة تكشف أنَّ المؤلف لا يريد أنْ يستعرض ما يعرفه، بقدْر ما يريد أن يشارك القارئ ما تعلَّمه من مسيرته.

وهذا البُعد الإنساني مهمٌّ للغاية.

فحين يكتب المترجم عن تجربته، فهو لا ينقل معلوماتٍ فحسب؛ إنه يفتح جزءًا من ذاكرته المهنية أمام جيل جديد من المترجمين، ويقول لهم، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة: هذه بعض الأشياء التي تمنيتُ لو أنَّ أحدًا قالها لي عندما كنتُ في بداياتي.

ومن هنا يتحوَّل الكتاب من مجرد مؤلف في الترجمة إلى نوعٍ من رسالة وفاء للجيل الجديد، ورسالة امتنان للمهنة التي احتضنَت صاحبها، ورغبة صادقة في أنْ تنتقل الخبرة من جيل إلى جيل.

إنَّ قيمة هذا العمل لا تكمن فقط في الموضوعاتِ التي يتناولها، وإنما كذلك في الدافع الذي يقف وراء تأليفه: الرغبة في تقاسُم المعرفة والخبرة. وهذه، في حدِّ ذاتها، قيمة علمية وإنسانية كبيرة؛ لأنَّ المعرفة التي تبقى حبيسة صاحبها تنتهي بانتهاء تجربته، أما المعرفة التي تُشارَك وتُنقل وتناقَش، فإنها تُواصل حياتها في الآخرين.

ولذلك، أرى أنَّ هذا الكتاب يمكن أنْ يجد طريقه إلى أكثر من قارئ واحد. فهو يخاطب الطالب الذي يخطو خطواته الأولى في عالَم الترجمة، ويمنح الممارس فرصةً لإعادة النظر في بعض جوانب تجربته، كما يمكن أنْ يكون مادة مفيدة للأستاذ والباحث والمهتم بمهنة الترجمة وتحولاتها الراهنة.

وإذا كان عنوان الكتاب يقول: «أنْ تصبح مترجمًا»، فإنَّ القراءة المتأنية لمضمونه تقودنا إلى معنى أعمق: إنَّ المترجم لا «يصبح» مترجمًا مرة واحدة، ثم يكتمل. إنما يظلُّ في حالة من التكوُّن المستمر. فكلُّ نصٍّ جديد يُعلِّمه شيئًا، وكلُّ تجربة مهنية تضيف إلى رصيده، وكلُّ خطأ يراجعه، وكلُّ ثقافة يكتشفها، وكلُّ تقنية جديدة يتعلَّم كيفية التعامل معها، تُسهم في إعادة تشكيله مهنيًا وإنسانيًا.

ولعلَّ هذا هو أحد الدروس الأساسية التي يمكن أنْ يستخلصها القارئ من هذا الكتاب: أنَّ الترجمة مهنة لا تنتهي فيها مرحلة التكوين؛ لأنَّ المترجم نفسه يظلُّ مشروعًا مفتوحًا على التعلم والتجربة والتطور.

وإنني، إذ أضع هذا الكتاب بين أيدي القراء والطلبة والأساتذة والباحثين والمترجمين والمهتمين بالشأن اللغوي والثقافي، أشعر باعتزاز خاصٍّ بهذا العمل، لا لأنه يمثل تجربة مترجم محترف فحسب، وإنما لأنه يمثل أيضًا ثمرة مسارٍ بدأ من مقاعد التكوين، ثم واصَل طريقه في رحاب الممارسة، وانتهى إلى رغبة نبيلة في تقاسُم التجربة والمعرفة.

ويسعدني، من موقعي أستاذًا بمدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة، أنْ أرى أحدَ أبنائها وقد انتقل من مرحلة التلقي إلى مرحلة العطاء، ومن مقاعد الدراسة إلى فضاء الإنتاج الفكري والمهني. وإنَّ أجمل ما يمكن أنْ يطمح إليه الأستاذ هو أنْ يرى أثر ما أسهم به، ولو بقدْر يسير، في مسارات طلبته، ثم يراهم بعد ذلك قادرين على أنْ يضيفوا هم بدورهم إلى الحقل الذي اختاروه.

إنَّ كتاب «أنْ تصبح مترجمًا: رحلة من التكوين إلى الممارسة والرؤية» هو، بهذا المعنى، أكثرُ من كتاب عن الترجمة؛ إنه شهادة على مسار، وخلاصة تجربة، ودعوة إلى التعلم المستمر، ورسالة إلى كلِّ مَن اختار الترجمة مهنةً ورسالةً وجسرًا بين اللغات والثقافات.

فجزى الله مؤلِّفه الأستاذ والمترجم المحترف نادر الخمليشي خيرَ الجزاء على هذا الجهد، ونفع به طلبة الترجمة وممارسيها والباحثين فيها، وجعل هذا العمل إضافةً نافعة إلى المكتبة العربية والمغربية في مجال الترجمة، وفتح به أبوابًا جديدة للحوار حول مستقبل المهنة في زمن التحول الرقمي والذكاء الاصطناعي.

وأسأل الله تعالى أنْ يوفق المؤلِّفَ في مسيرته العلمية والمهنية، وأنْ يبارك في علمه وعمله، وأنْ يجعل هذا الكتاب أثرًا طيبًا يمتدُّ نفعُه إلى أجيال من المترجمين، وأنْ يظلَّ

شاهدًا على أنَّ أفضل ما يمكن أنْ يتركه الإنسان بعد سنواتٍ من التعلم والممارسة هو المعرفة التي يمنحها للآخرين.

والحمدُ لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحاتُ.

الدكتور الطيب بوتبقالت

أستاذ علوم الإعلام والتاريخ المعاصر

بمدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة

المدير التنفيذي للمركز الدولي للترجمة والتواصل بين الثقافات

تمهيد

لماذا كتبتُ هذا الكتاب؟

بعض الكتب تبدأ من فكرة.

وبعضها يبدأ من عُمرٍ.

يتكوَّن ببطء، من غير أنْ نعرف لحظة ولادته الأولى؛ يترسَّب في الذاكرة من قاعة درس، ومن نصٍّ استعصى، ومن مصطلح أضاع ساعاتٍ من البحث، ومن خطأ بقي أثرُه أطولَ مما بقيَت تفاصيل العمل نفسه، ومن وجهٍ جلس أمام مكتب الترجمة يحمل أوراقًا يراها ملفًا، بينما نكتشف نحن، مع السنواتِ، أنها تحمل شيئًا من حياته.

هذا الكتاب من ذلك النوع.

لم يبدأ حين جلستُ لأكتب صفحته الأولى. كان قد بدأ قبلها بزمن طويل، يوم كنتُ أتعلَّم كيف أنقل جملة من لغة إلى أخرى، قبل أنْ أفهم أنَّ المهنة ستُعلِّمني، مع مرور السنوات، شيئًا أوسع من نقل الجُمل: ستعلِّمني كيف أنظر إلى المعنى، وكيف أشكُّ، وكيف أبحث، وكيف أتوقَّف، وكيف أتحمَّل مسؤولية كلمة قد يقرؤها بعدي شخصٌ لا أعرفه، فيبني عليها فهمًا أو قرارًا.

في البداية، تبدو الترجمة طريقًا واضحًا بين لغتَين؛ لغة ننطلق منها، ولغة نريد أنْ نصل إليها، ونصٍّ يقف بينهما طالبًا العبور.

ثم تمضي السنواتُ، فنكتشف أنَّ الطريق لم يكن مستقيمًا كما ظننا. بين اللغتَين توجد ثقافة، ومؤسسة، وقانون، وذاكرة، وسياق، ومصلحة، وإنسانٌ قد يكون لمصطلح واحد في وثيقته أثرٌ لا تكشفه بساطة الكلمة.

وهنا نتغير نظرتنا إلى المهنة. لا تعود الكلمات وحدَها هي التي تعبُر من ضفةٍ إلى أخرى؛ نحن أيضًا نعبُر معها. نعبُر من الثقة السريعة إلى الشكِّ المهني، ومن البحث عن المقابل إلى البحث عن المفهوم، ومن الرغبة في أنْ نملك الجواب إلى القدرة على أنْ نقول، حين يجب: «لا أعرف بعد. سأتحقق».

وهذه، في رأيي، واحدةٌ من أجمل التحولاتِ التي تصنعها الخبرة في المترجم. لا تجعله أقلَّ ثقة بنفسه، بل أكثرَ دقة في معرفة المواضع التي تستحقُّ الثقة وتلك التي تستحقُّ التوقف.

من التكوين إلى الميدان

حين تخرجتُ في مدرسة الملك فهد العليا للترجمة سنة 2005، كنتُ أحمل ما يمنحه التكوين الجادُّ لمَن يُحسن الانتفاع به: لغةً، ومنهجًا، وانضباطًا، وأدوات أولى للتعامل مع النصِّ، وثقةً يحتاج إليها كلُّ مَن يقف على عتبة المهنة.

لكن المدرسة، مهما بلغَ مستواها الأكاديمي، لا تستطيع أنْ تمنح الطالب عمرًا مهنيًا لم يعشْه. لا يمكنها أنْ تجعله يعرف معنى الموعد الضاغط قبل أنْ يطارده موعد حقيقي، ولا أنْ تجعله يشعر بثقل الخطأ قبل أنْ يرى خطأً صغيرًا يكاد يمرُّ من بين يدَيه، ولا أنْ تُعلِّمه كامل معنى السرية قبل أنْ تُفتح أمامه وثيقة تحمل من حياة صاحبها ما لم يكن ذلك المترجم يومًا طرفًا فيه.

ولا تستطيع أنْ تمنحه معنى المراجعة كاملًا قبل أنْ يكتشف أنَّ عينًا ثانية كان يمكن أنْ تنقذ نصًا كاملًا من رقم واحد، أو اسم واحد، أو نفي صغير.

هناك أشياء لا تُدرَّس إلا جزئيًا. ثم يأتي الميدان ليكملها. وهناك معرفة لا تسكن الكتابَ إلا بعد أنْ تكون قد سكنَت التجربة أولًا.

ومن هذه المسافة بين ما نتعلَّمه وما نصبحه وُلد جزء كبير من هذا الكتاب. لم أُردْه كتابًا ينتقص من التكوين الأكاديمي، بل كتابًا يمدُّ الجسر من التكوين إلى ما ينتظر المترجم بعده. فالجامعة تمنح الأساس. أما المهنة فتعيد ترتيب كثير من الأشياء.

اللغة الثالثة للمترجم

دخلتُ مجال الترجمة وأنا أظنُّ، كما يظنُّ كثير من المبتدئين ، أنَّ عملي يقع أساسًا بين لغتَين. ثم اكتشفتُ أنَّ المترجم يحتاج، إلى جانبهما، إلى لغة ثالثة.

ليسَت العربية، ولا الفرنسية، ولا الإسبانية. إنها «لغة المهنة».

لغة لا نجد مفرداتها مُرتبةً في قاموس، لأنها تتكوَّن من المواقف أكثر من الكلمات. بها نتعلَّم كيف نسأل قبل أنْ نبدأ، وكيف نفهم ما يريده الزبون حين لا يعرف هو نفسه كيف يصوغ طلبَه، وكيف نُميِّز بين وثيقة واضحة وأخرى تبدو واضحةً فقط، وكيف نقول إنَّ النسخة غير مقروءة بما يكفي، وكيف نطلب وقتًا إضافيًا من غير أنْ نبدو عاجزين، وكيف نرفض موعدًا لا نستطيع الوفاء به، وكيف نُميز بين الخطأ اللغوي، والخطأ المؤسساتي، والخطأ المهني، والخطأ الأخلاقي.

وبها أيضًا نتعلَّم متى نحتاج إلى زميل، ومتى نحتاج إلى مُختصٍّ، ومتى تكون كلمة «لا» أكثر مهنية من كلمة «نعم».

هذه اللغة الثالثة لا تُحفظ، بل تُكتسب. تبنيها النصوص، والزبائن، والمراجعات، والقرارات الصحيحة، والقراراتُ التي ندفع ثَمنها ثم نتعلَّم منها. ومع الوقت، تصبح هي الفارق بين شخص يعرف لغتَين وشخص يعرف كيف يمارس مهنة الترجمة.

لم أكتب سيرة ذاتية

ستظهر تجربتي في هذه الصفحات، وهذا أمرٌ لا يمكن ولا ينبغي إخفاؤه.

ستظهر مدرسة الملك فهد، وسنواتُ البدايات، والعمل في الصحافة، والترجمة الشفهية، والمكتب، والمشاريع التقنية، والوثائق الرسمية، والتعامل مع الزبائن، وتحوُّلات السوق، والجائحة، ثم دخول الذكاء الاصطناعي إلى مكتب المترجم، لا بوصفه أداةً جانبيةً، بل بوصفه قوة بدأت تعيد ترتيب المهنة من الداخل.

لكنني لم أُرِد لهذه الوقائع أنْ تكون غاية الكتاب. فالخبرة التي لا نستخرج منها معرفةً تبقى ذكرى شخصية.

أما ما أردتُه فهو أنْ أسأل، بعد كلِّ مرحلة: ماذا علَّمتني؟ ما الذي تغيَّر في طريقة عملي بعدها؟ ما الذي كنتُ سأفعله بصورة مختلفة لو عدتُ إلى بدايتها؟ وما الذي يمكن أنْ أوفره على مَن يأتي بعدي إذا سطَّرتُه على الورق؟

فالسيرة تقول: حدثَ هذا. أما الخبرة فتسأل: ماذا نفعل بما حدث؟

لماذا يبدأ الكتاب بالتاريخ؟

كان يمكن أنْ أبدأ مباشرةً من المهنة التي عشتُها. لكنني شعرتُ أنَّ من الصعب أنْ نفهم ما يحدث للمترجم اليوم إذا نظرنا إلى حاضر المهنة وحدَه.

يكاد كلُّ جيل يظنُّ أنَّ التحول الذي يعيشه هو الأكبر والأشد والأكثر جذريةً. ثم نعود إلى التاريخ، فنكتشف أنَّ الترجمة لم تتوقَّف يومًا عن تغيير أدواتها وطرائقها وعلاقتها بالمعرفة.

جاء القاموس، ثم الطباعة، ثم الآلة الكاتبة، ثم الحاسوب، ثم الإنترنت، ثم أدوات الترجمة بمساعدة الحاسوب، ثم الترجمة الآلية، ثم الذكاء الاصطناعي التوليدي.

وفي كلِّ مرحلة تغيَّر شيء حقيقي. لكن شيئًا آخر ظلَّ يقاوم التغيير. لا يزال المترجم ، مهما تطورت الوسائل، مُطالَبًا بأنْ يفهم ما أمامه، وأنْ يختار، وأنْ يُعيد بناء المعنى في لغةٍ أخرى، وأنْ يتحمل أثرَ اختياره.

تاريخ الترجمة ليس تاريخ تبدُّل جوهرها؛ بقدر ما هو تاريخ اتِّساع أدواتها وتطوُّر الوعي بمنهجها.

حين دخل الذكاء الاصطناعي إلى قلب السؤال

كان من الممكن، قبل سنواتٍ، أنْ نتحدَّث عن التكنولوجيا في فصل جانبيٍّ من كتاب عن الترجمة. لم يعُد ذلك ممكنًا اليوم.

فلم يعُد الذكاء الاصطناعي مجرد برنامج يُسرِّع البحث أو يقترح مقابلاً. فقد بدأ ينتج المسودة، ويُعيد الصياغة، ويقارِن، ويُراجِع، ويقترح المصطلح، ويناقش الاختيار، ويتعامل مع الصوت والصورة. وبهذا انتقلَت التقنية من الأطراف إلى قلب العملية نفسها.

ولم يعُد السؤال: هل تستطيع الأنظمة الذكية أنْ تترجم؟ بل أصبح: ماذا يحدث للمترجم حين تستطيع الأنظمة أنْ تنتج جزءًا كبيرًا ممّا كان هو ينتجه؟ أين تنتقل القيمة؟ هل تبقى في كتابة الجملة؟ أمْ تنتقل إلى التقييم والمراجعة والتخصُّص والمسؤولية؟ ما الذي ينبغي أنْ نفوِّضه؟ وما الذي ينبغي ألّا نفوِّضه؟ وماذا يحدث لمهارتنا إذا اعتدنا أنْ يأتي الاقتراح قبل أنْ تبدأ محاولتنا؟

ليست هذه أسئلة تقنية فقط. إنها أسئلةٌ عن المهنة نفسها. ولهذا، كان لا بدَّ أنْ يصل هذا الكتاب من المخطوط والقاموس إلى الذكاء الاصطناعي، ومن الترجمة بوصفها فعل إنتاج إلى الترجمة بوصفها أيضًا فعل مراجعة وحُكم ومسؤولية.

ومع ذلك، فليس هذا كتابًا عن التقنية. كلما اقتربنا منها، عُدنا إلى الإنسان: إلى لغته، وإلى قراءته، وإلى شكِّه، وإلى قدرته على التحقق.

فالنظام يستطيع أنْ يقترح عشر صيغ، لكن لا شيء في كثرة الاقتراحاتِ يعفي المترجم من السؤال: أيُّ صيغة منها أستطيع أنْ أضع اسمي عليها مطمئنًا؟

المغربُ ليس خلفية للكتّاب

لم أُرِد أنْ أكتب عن مترجم يعيش في مكان بلا ملامح. فالترجمة لا تحدُث في الفراغ. بل تحدُث داخل بلد، ومؤسساتٍ، وقوانين، وعادات مهنية، وأسواق، وتعدُّد لُغويٍّ له تاريخه وحاضره.

وفي المغرب، لهذا كله خصوصيته.

بالعربية، بما تختزنه من ذاكرة تاريخية وثقافية، وما تحمله اليوم من حضور في الإدارة والقانون والتعليم والحياة العامة.

وبالأمازيغية، بما لها من عمق في الهُوية وحضور مؤسَّساتي متزايد.

وبالحسانية في امتدادها الثقافي واللغوي.

وبلُغة الإشارة بما تُمثله من حقٍّ في الوصول والفهم.

وبالفرنسية في مجالاتٍ واسعة من الاقتصاد والإدارة والتعليم والعمل المهني.

وبالإسبانية، خصوصًا في شمال المغرب.

وبالإنجليزية وهي تُوسِّع حضورها في العلم والتقنية والاستثمار والتواصل الدولي.

لم يكن هذا التعدد يومًا زينةً لغويةً في المشهد المغربي. إنه واقعٌ مهنيٌّ.

ولهذا سيحضر المغرب في هذا الكتاب في المصطلح، وفي المؤسسة، وفي الوثيقة، وفي السوق، وفي العلاقة مع الزبون، وفي الأسئلة التي يواجهها المترجم داخل الواقع اليومي. لكن الحضور المغربي لا يعني الانغلاق. فالمغربُ هنا هو الأرض التي أقف عليها لكي أنظر منها إلى التجارب العربية والدولية، لا جدارًا يمنعني من رؤيتها.

لماذا أكتب ما تعلمتُ؟

لأنني لا أؤمن بأنه ينبغي لكلِّ جيل أنْ يبدأ من النقطة نفسها.

في المهن التي لا توثّق خبرتها، يحدث شيءٌ مؤلم. يعيد الجيل الجديد ارتكابَ الأخطاء القديمة، ثم يحتاج إلى السنواتِ نفسها حتى يكتشف ما اكتشفه مَن سبقه.

وفي الوقت نفسه، لا يمكن أنْ ننقل إلى المترجم الشاب خبرةَ عشرين سنة في صفحاتٍ. فالخبرة لا تُورث بهذه البساطة. لكن يمكن أنْ نضع له بعض العلاماتِ على الطريق.

هنا تمهَّل. هنا لا تُصدِّق الجواب الأول. هنا راجِع الاسم. هنا لا تعِدْ بما ليس بيدك. هنا لا تجعل السعرَ يقودك إلى عمل لا تستطيع إنجازه كما ينبغي. وهنا، قبل أنْ ترفع الوثيقة إلى أيِّ نظام، اسأل نفسك أولًا إنْ كان يحقُّ لك أنْ تفعل ذلك أصلًا.

ربما لا تختصر هذه العلاماتُ الطريقَ. لكنها قد تمنع تكرار بعض الأخطاء. وهذا وحده سببٌ كافٍ للكتابة.

لا تنقص المعرفة حين نشاركها

في ثقافتنا المهنية يتردد أحيانًا قولٌ دارجٌ يلخص نظرة كاملة إلى الزمالة: «خوك فالحرفة عدوّك». وتُجاوره فكرة أخرى لا تقلُّ حضورًا: لا تُرِ غيرك «العوينة اللي كتشرب منها».

لم أستطع أنْ أتبنّى هذه النظرة. أفهم المنافسة، ولا أعيش في وهم أنَّ السوق لا يعرفها. لكنني لا أرى أنَّ الزميل يصبح عدوًّا بمجرد أنه يمارس الحرفة نفسها.

قد ينافسني اليوم، وقد يراجع لي نصًا غدًا. وقد أحيل إليه ملفًا لا يدخل في تخصُّصي. وقد ينبّهني إلى خطأ لم أره. وقد أُعلِّمه شيئًا اليوم ثم أتعلَّم منه بعد سنواتٍ أكثر مما علَّمتُه.

وإذا كانت قيمة المترجم كلها مُعلَّقة باسم قاموس يخفيه، أو موقع لا يريد لغيره أنْ يعرفه، أو أداة يحتكر اسمها، فهذه قيمة أضعفُ ممّا يتصور!

فالوسيلة يمكن أنْ تصل إلى الجميع. أما الخبرة الحقيقية فتتشكَّل في شيء أبطأ وأعمق: في العين التي تعلَّمَت أنْ ترى موضع الخلل، وفي العقل الذي يفاضل بين الحلول، وفي الشكِّ الذي يمنع صاحبَه من الاعتماد المتسرع، وفي الضمير الذي يعرف أنَّ النصَّ ليس ملعبًا لاستعراض المهارة، بل مسؤولية.

لا تنقص المعرفة حين نشاركها. نتعرَّض للاختبار، ويضيف إليها الآخرون، ويُصحِّحونها، ويتركون عليها آثار تجاربهم. وحين يحدث ذلك، تتحوَّل من ذاكرة فردٍ إلى جزءٍ من ذاكرة المهنة.

وهذا، في نظري، أحدُ أنبل الأشياء التي يمكن أنْ يفعلها مَن أمضى سنواتٍ طويلة في عملٍ ما.

والرزقُ بيدِ الله

أقول ذلك من غير أنْ أجعله حُجَّة للتواكل.

نخطط، ونتعلَّم، ونستثمر، ونُسعِّر عملَنا بما يحفظ كرامته، ونبني السُّمعة، ونسعى إلى السوق، ونجتهد. لكننا لا نجعل الخوف على الرزق مبررًا لإغلاق أبواب المعرفة في وجه الآخرين.

فما تعلَّمناه لم نصنعه وحدنا. فيه أثرُ أستاذٍ، وزميل، ومُراجِع، وعميل، وكتاب، وخطأ، وموقف، وشخص فتح لنا بابًا في لحظة ما.

ولهذا، فإنَّ مشاركة بعض الخبرة ليست منَّة نُقدِّمها إلى مَن يأتي بعدنا. هي، في جانب منها، ردُّ لدَيْن قديم.

لا أريد لمَن يأتي بعدنا أنْ يكون نسخة منّا

بل أريده أنْ يبدأ من نقطة أبعد. أنْ يأخذ ما ينفعه من تجربتنا، وأنْ يترك ما تجاوزه الزمن، وأنْ يُصحح ما أخطأنا فيه، وأنْ يضيف ما لم نرَه، وأنْ يصل إلى أماكن لم نصل إليها.

فالجيل الجديد لا يكرم الجيل السابق حين يُقلِّده. بل يكرمه حين يبني فوق ما تركه ثم يتجاوزه. والمعرفة التي لا تسمح لمَن يأتي بعدها بأنْ يتجاوزها تتحوَّل إلى سلطة، لا إلى تعليم.

لمَن كتبتُ هذا الكتاب؟

كتبتُه لطالبٍ يقف على عتبة الترجمة، يرى البابَ ولا يعرف بعد ما وراءه.

ولمترجمٍ بدأ العمل فاكتشف أنَّ بين ما درسه وما يطلبه السوقُ مساحةً لم يسمع أسماء كثير من عناصرها في قاعة الدرس.

ولمترجمٍ خبير قد يجد في بعض الصفحات شيئًا من تجربته، وقد يخالفني في بعضها، ولا أرى في الاختلاف مشكلة.

وكتبتُه للأستاذ الذي يريد أنْ يبقى التكوين قريبًا من الميدان، وللمهني الذي ينظر إلى الذكاء الاصطناعي ويسأل لا عمّا يستطيع أنْ يفعله اليوم فقط، بل عمّا قد يفعله بمهنته غدًا، ولكلِّ مَن يريد أنْ يفهم لماذا لا تكفي معرفة لغتَين لصناعة مترجم.

ولماذا «أنْ تصبح مترجمًا»؟

لم أختَر عنوانًا يقول: «كيف تصبح مترجمًا؟» لأنَّ «كيف» توحي بوصفةٍ، وبخطواتٍ نُرتبها، وبطريقٍ له بداية ونهاية واضحتان.

أما «أنْ تصبح مترجمًا» ففيها شيءٌ من الرحلة نفسها. فيها حركة، وتدرُّج، وتحوُّل، وفيها اعترافٌ بأنَّ المترجم لا يصل مرة واحدة.

لا يصبح مترجمًا يوم يحصل على شهادته، ولا يوم يترجم أول وثيقة، ولا يوم يفتح مكتبًا، ولا حتى حين تمرُّ على مهنته عشرون سنة.

إنه يصبح مترجمًا كلما اتسعَت قدرتُه على الفهم، وضاقت مساحة ادِّعائه، وأصبح أكثر دقةً في الاختيار، وأكثر هدوءًا أمام الغموض، وأثقل شعورًا بمسؤولية الكلمة.

يصبح مترجمًا حين يعرف أنَّ السرعة ليست دائمًا فضيلة، وحين لا يخجل من العودة إلى المصدر، وحين يستطيع أنْ يقول «لا أعرف!»، وحين يتعلَّم أنْ يراجع حتى ما كتبه وهو واثقٌ منه، وحين يدرك أنَّ الأداة - مهما بلغَت قوتها - لا تُعفيه من الحكم، وحين يفهم أنَّ وراء كلِّ وثيقة إنسانًا، وأنَّ وراء كلِّ ترجمة أثرًا.

لهذا، ليس هذا الكتاب وصفةً للوصول إلى لقبٍ. إنه محاولة لتتبُّع عملية نُضج. رحلة تبدأ باللغة، ثم تضيف إليها الممارسةُ المنهجَ، وتضيف الأخطاءُ الحكمةَ، ويضيف الزمنُ المسؤوليةَ، حتى يكتشف المترجم أنَّ ما تغيَّر فيه عبر السنواتِ لا يقلُّ أهميةً عمّا تعلَّمه عن اللغاتِ.

فأنْ تصبح مترجمًا ليس أنْ تتعلَّم كيف تعبُر بين لغتَين فحسب؛ بل أنْ تتعلم، وأنت تعبُر بينهما، كيف تحمل المعنى من غير أنْ تُثقل عليه، وكيف تحميه من نفسك ومن الأداة ومن العجلة، ثم تُسلمه إلى الضفة الأخرى وفيه أكبر قدْر ممكن من أمانته الأولى. ومن هنا تبدأ الرحلة.